الوجدان المهنى
والأزمة الخلقية العصرية

للدكتور محمد غلاب

تمهيد :

تتشعب مشكلة العمل المترامية الأطراف الى عدة فروع متباينة الصور والاتجاهات، ولقد حاولنا أن نبسط بعض مظاهرها المختلفة فى كلماتنا السالفة ، ولكن هناك أيضا من هذه المظاهر ما بلغ من الأهمية حدا جعله الشغل الشاغل للمصلحين الاجتماعيين فى جميع الأمم المتحضرة فى هذا العصر، ولذلك لا ينبغى أن نجارى الضعفاء الذين يودون أن يتجنبوا الخوض فى هذه الموضوعات التى يعتبرونها شائكة و يرون أن إثارتها قد تسبب للبلاد شرا وسوءا ، وهم فى هذا لا يرون ما هو أبعد من أنوفهم، إذ يعتقدون أن الناس غير منتبهين إلى هذه الشؤون، وأن فى الكتابة عنها بأى وجه من الوجوه تنبيها لأولئك الغافلين من أعوانها فيكون مثلهم فى ذلك مثل النعامة التى تخفى وجهها معتقدة أنها فى مأمن من الأنظار مادامت هى لا ترى أحدا، ولا ريب أن هذا هو أدنى دركات الحمق والبله .

أما المصلح الحقيق البعيد النظر، السديد الرأى، فهو الذى يجابه هذه الحقائق فى شجاعة ولا يرهب نتائجها و يفرغ قصارى جهده فى البحث عن حلولها وسد ما يفتح الزمن فيها من ثغرات لو اغمضت عنها العيون — سواء أكان ذلك بدافع الجبن أو بباعث الإهمال — لتفاقمت واتسع مداها وتعذر علاجها . واذا فينبغى ألا ننسى أن معضلة العمل هى الآن أحد أسس المعارك الاجتماعية الثائرة أو الخامدة ، والصاخبة أو الصامتة التى تتغلغل اليوم فى جميع الأمم على اختلاف أجناسها وتباين نزعاتها ومبادئها ، والتى لا يخلو منها بلد من بلاد العالم فى هذه الآونة الحاضرة ، ويجب ألا يغيب عن الأذهان ان الشعب الذى يستطيع أن يجيد فهم هذه المعضلة و يتعمق فى إدراك عناصرها الأولية ، و يوفق الى أن يجد لها الحلول الأشد حياة والأعظم نشاطا والأدنى الى الانسانية هو الذى سيكون أكثرها فوزا بتجنب سوء التفاهم المشئوم، أو الجهل السيء النتيجة أو الحمق الضار بكل مصالحه الأساسية ، إذ أن هذه العوامل الرديئة هى فى أكثر الأحيان منشأ كل تلك الاصطدامات العنيفة التى تقع بين الطبقات المختلفة وكثيرا ما ينفجر لهيبها بغتة فيأخذ المصلحين على غرة دون أن يعدوا له العدة، وقبل أن يأخذوا الأهبة للعلاج تلك العلل الاجتماعية الفجائية ، وعند ذلك يستعصى الداء و يعز الدواء و يخرج الأمر من الطاقة .

ولئن كان العمل بوجه عام يعد الآن أهم موضوعات العناية والرعاية من لدن علماء الاجتماع ، فان جانبا واحدا على الأخص من جوانبه هو الذى ينفرد قبل غيره بالصدارة ، لأن خطره قد أخذ يعم و ينتشر بهيئة تتطلب الحذر وتقتضى الاحتياط . وهذا الجانب هو ما يدعوه الاجتماعيون : "أزمة الوجدان المهنى" .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الظاهرة التى فشا وباؤها وكاد يشمل بيئات العمل كلها ، وقبل أن نحاول البحث عن عللها الأولى ومصادرها الأساسية ، ينبغى أن نبدأ بتوضيح تلك الروابط الضيقة المتينة التى تصل بين العمل والمبادئ الخلقية والتى هى منشأ ارتفاع مستوى المهن وكرامتها عن أن تكون أداة لكسب المال فحسب ولو من طريق غير شريف ، لأن الذى لاسبيل إلى تحويده أو إلى الارتياب فيه هو أنه بقدر ماتتغلغل هذه المبادئ فى النفوس بقدر ما تشعرها بانسانيتها ، وتلزمها بأداء واجبها قبل التفكير فى المطالبة بحقها . ولاجرم أن هذا بعينه السمو الفعلى لمستوى المهنى ، أما محاولة تحسين الأحوال المادية للعمال قبل الانشغال بهذه الناحية الجوهرية فهو ضرب من السطحية التى قد لاتنتج إلا أسوأ النتائج على البلاد ، لأن العامل المنخفض المستوى الخلقى اذا حصل على المال الذى يتيسر له أولئك العاملون على تحسين حالته فى غير تفكير عميق ، فانه — بدل استعماله فيما يعود عليه بالنفع — ينفقه بلا ريب فى وجوه السوء والفساد . ولذلك وجب بيان هذه الصلات التى تربط العمل بالمبادئ الخلقية قبل البدء فى أى اصلاح وتحسين .

الأهمية الخلقية للحياة المهنية :

من أهم الواجبات الاجتماعية الأولى أن يكون للمرء عمل مهنى أى أن يشغل وظيفة نافعة أو يقوم بدور مفيد فى المجتمع . ولهذا كان من الطبيعى أن تتبين الانسانية شيئا فشيئا أن العاطلين الذين يستفيدون من الجماعات دون أن يفيدوها أية افادة يقترفون بهذه الاستفادة إثم الجور الحقيق فى نظر العاملين ، بل إن أولئك العاطلين الأثرياء هم الذين لايزال العاملون على نظام الملكية الفردية يتخذونهم متكأ يبررون به حملتهم ويؤيدون به دعواهم أن الملكية ليست دائما ثمرة النشاط الشخصى ، بل هى كثيرا ماتتحقق عند الخاملين الكسالى الذين لاعمل لهم ولا مجهود .

واذا عرفنا أن العمل واجب اجتماعى كان أول ما يتبادر الى الذهن هو أنه مرتبط بالمبادئ الخلقية ارتباطا وثيقا ، وتلك حقيقة واقعة ، واليك أواصر هذا الارتباط :

(١) ينبغى أن نلاحظ مبدئيا أن خير ما تتحقق فيه شخصية الفرد كاملة هو العمل ، إذ به وحده يقيم الدليل على عقليته وكفايته الخاصتين ، وهو الذى ينمى فيه الشعور بذاته ويدفعه إلى مقاومة المصاعب ومصادمة العقبات . ولا ريب أن المرء عند ما يرى نتيجة عمله — سواء أكانت عقلية أم حسية — تبرز إلى عالم النور وتتجسم ثم تخصب ، وحينما يلفى نفسه مدفوعا إلى اقتياد ثمار نشاطه نحو غايته المنشودة ويشعر بأنه يفرغ فى هذا أقصى مجهوده ، فإنه يحس بلذة لا تعدلها لذائذ المتع والمسرات .

(٢) إن المهنة — إذا لم تفسد فطرتها — تزعم بدون شك المستوى الخلقى للفرد ، فنى الواقع المشاهد أن العاطل الذى ليس له عمل منظم يشغله يمثل دائما نوعا من النقص الخلقى

فى غير واحدة من نواحيه ، يستوى فى ذلك من العاطلين الثرى والمتشرد ، وعلى العكس من ذلك تماما كلما كانت الحياة المهنية تميلة شاقة سيئة بالمتاعب والشواغل كانت الحياة الخلقية أشد جدية وأعظم رعاية ، وكانت مبادئ الفضيلة أكثر ضيقا وحزما ، ومن آيات ذلك أن الجرائم والرذائل تقل إلى حد الندرة فى الجماعات المهنية التى تصل بينها روابط الوحدة الدقيقة كأسرة القضاء أو الأسر الجامعية وما شاكل ذلك ، ولكن إذا شاهدنا فى مثل هذه الوحدات فى بعض العصور مخالفة لهذه (المَانْشَانِيَة) أو انحرافا عن المألوف أو مجافاة لحادة الأخلاق وميلا إلى الفجور والرذيلة ، فإنه ينبغى البحث عن الأسباب الحقيقية لهذا الفساد بين رؤساء هذه الوحدات أو القابضين على أزمة المجتمعات أو المشرفين على أمور الدولة ، فاولئك هم المسئولون قبل غيرهم عن هذا الانحلال . وفى تصوير هذه الحالة الأسيفة يقول العالم القانونى الكبير والمفكر الضليع دى مونتيسكيو : " إن أعظم الأضرار التى يسببها وزير غير شريف ليس هو الإساءة إلى بلده أو جلب الدمار على بلاده فحسب ، بل إن هناك ضررا آخر أشد خطرا من الأول مرات عدة ... فلقد رأيت وطنا كريما بالطبع هوى إلى الفساد فى وقت قصير من أدنى أفراده الى أعلاهم وكان ذلك عن طريق قدوة سيئة بدأها وزير[1] "

٣ — إن المهنة تخلق بين أفرادها نوعا من التماسك الذى يذكرنا من بعض نواحيه بالتماسك الذى يربط بين أعضاء الأسرة الواحدة والذى هو بمثابة حفظ التوازن ضد الأنانية البغيضة الضارة بالمجتمع ، فأفراد المهنة الواحدة كأنهم يحيون فى معيشة واحدة فيشتركون فى السراء والضراء اللتين تتعرض لهما مهنتهم ويشعرون فى نفس الحفاوة ويألمون من ذات البأساء . ولهذا يصرح دوركيم "بأن الجماعات المهنية ستحل محل الأسرة فى بعض شؤونها ولا سيما فى وظائفها التهذيبية" . ونحن نميل الى صحة هذا الرأى ولا نجد عسرا فى التدليل عليه ، ومن أجل ذلك نرى أن من الضرورى العناية بهذه الجماعات الى حد كبير ما دام أن لها كل هذا الأثر فى المجتمع .

٤ — وأخيرا إن المهنة تربط الفرد بالحياة الاجتماعية فى مجموعها ربطا محكما ، إذ أن المرء بقدر ما يدرك التماسك العضوى الذى ينتج من تقسيم العمل يستطيع أن يكون له فكرة صحيحة عن الدور الذى يمثله فى تلك الحياة ، وإيضاح ذلك أنه يشعر بأنه جزء من الكل العام وأنه يساهم فى المجهود المشترك ويقوم بجانب من العمل الأعظم الهائل الذى يدير دولاب العالم الأرضى . ومن هذا الشعور العالى تتألف المهن — ولو كانت غاية فى التواضع — كرامتها التى تحفظ عليها احترامها أمام غيرها .

---

(1) De Montesquieu.—les lettres persanes—lettre 164

من هذه الأهمية الخلقية والاجتماعية التي أبناها للمهنة يتضح مقدار ما يجب علينا بذله من التفكير في اختيارها والعناية بفحصها قبل الانزلاق في طريقها وفقد القدرة على العدول عنها ، فذلك ليس بالأمر الهين أو اليسور . ولم تكن هذه المنزلة الخطيرة التي يمنحها العلماء للمهنة حادثة عليها ، فباسكال نفسه — وهو سابق على علماء الاجتماع الفنيين — قد قال فيها من قبل : "إن أهم شيء في الحياة هو اختيار المهنة" .[1]

وفي الواقع أننا عند الإقدام على هذا العمل الجسيم نقرر مصير مستقبلنا الأدبي كما نعين حدود مستقبلنا المادي ، ولهذا يجب على المرء قبل كل شيء أن يعد نفسه لمهنته المقبلة لكي يملأ فراغها كما ينبغي ، فإذا انتهى من إعداد مواهبه على النحو الأكمل وجب عليه أن تكون فكرته عن مهمته في الحياة ورسالته في المجتمع فكرة عالية تمثل العزة والكرامة وكبر النفس وعلو الهمة أصدق تمثيل ، وهذا الشعور نفسه هو الذي تقتضيه سلامة الفطرة التي لم تلوث بالعوامل الاجنبية العارضة .

الوجدان المهني :

تتكون من هذا الشعور الذي ذكرناه آنفا ملكة يمكن أن تدعى باسم الوجدان المهني. وعنها يصدر الميل الى العمل المتقن . وإذا اختبرنا هذه الملكة ألفيناها تشتمل بديا على انعطافات شخصية ثم على بواعث اجتماعية جد عامة ، وذلك لأن الفرد عند ما يزاول عملا لا يتصور أنه يعمل لنفسه فحسب ، بل للجماعة كلها . ولا ريب أن هذا الاعتبار يخلق في نفسه شعورا حيا بمسئوليته الشخصية و بأن إهمال اختبار قدر من اللبن أو كمية من الفحم إذا كان طبيبا ، أو التسرع في دراسة ملف من الأوراق ، أو كتابة تقرير عن أمر من الأمور إذا كان موظفا ، أو تعيين شخص غير كفء في منصب من المناصب إذا كان رئيسا ، يكون له من النتائج ما لا يقل خطورة عن إهمال تحويل قطار ملىء بالمسافرين. وأيا ما كان فلا ينبغي أن ننسى أن إتقان المرء عمله هو خير الوسائل لخدمة بلاده إذ أن الأعمال الجليلة التي تحقق البطولة نادرة ، ولكن مزاولة الأعمال العادية اليومية هي في متناول الجميع ولكل فيها متسع لإبداء ميله الفطري ، و إبراز مواهبه الطبيعية ، و إرضاء وجدانه المهني ، وأداء واجبه الوطني .

أزمة الوجدان المهني :

لا يجحد أحد من المصلحين المشتغلين بمراقبة الحركات الاجتماعية عن كثب في مختلف الدول أن الوجدان المهني يجتاز الآن أزمة خلقية قاتمة مخيفة ، وهم يجهدون أنفسهم في البحث عن أسباب هذه الأزمة ووسائل التخلص منها . وأول ما يبدو لهم جليا من هذه

(1) Pascal - Pensées - fragment 97 edition Brannschvig.

الأسباب الفعلية الأساسية التي أنتجتها هو انتشار المدنية الدنيا وذيوعها بين الطبقات جميعها إلى حد ضاعف الحاجة إلى الترف والاستمتاع باللذائذ الكمالية التي لم تكن مألوفة ولا معروفة في العصور السابقة ، وهذا يقتضي من أولئك الآخذين بالطرف الأدنى من المدنية ، البحث عما يرضي تلك الرغبات أيا كانت الوسائل التي تسلك لهذه الغاية . ولقد كان من الطبيعي المتوقع بعد الشعور بهذه الحاجة الملحة إلى المتع أن تسود النزعة المادية جميع البيئات وأن تغلب فيها كل ما عداها ، وهذا هو الذي حدث بالفعل ، فلم تكد المدنية الدنيا تلوح للجماعات بترفها ومتعها ومسراتها حتى انطلقت الغرائز من عقالها وجعلت تتخطى الحواجز الخلقية واحدا بعد واحد إلى أن كادت تأتي عليها جميعها . وفي إبان تخطيها كل حاجز يعاني وجدان الإنسانية أزمة تشتيه حينا من الدهر ثم تنتصر عليه فلا يملك إلا الحسرة والأسف على المبدأ الضائع والفضيلة الراحلة ، وها هو ذا الوجدان المهني يعاني اليوم تلك الأزمة الخطيرة التي تكاد تأتي على كل دقة وإتقان في العمل وتقضي على أحد المعالم الضئيلة الباقية في المجتمع من معاني الانسانية .

هذا ، وينبغي أن نلاحظ هنا أن أشد البيئات انغماسا في هذه الأزمة الخلقية الحالية واظهرها انحدارا إلى النزعة المادية وأعظمها انحرافا عن الصراط السوي هي بيئة التجار والصناع من أي نوع كانوا ، فلم تقتصر الفوضى الخلقية في هذه البيئات على الاعوجاج الفعلي والمروق عن قواعد الفضيلة فحسب ، بل بلغت بها الهمجية حد الريبة في الفكر والمبادئ نفسها ، فصارت ترتاب وتريب غيرها في معاني العدالة والنزاهة والشرف وما اليها من الفضائل السامية ، وليست هذه الحالة الأسيفة حديثة العهد ، فدوركيم يقرر منذ أكثر من أربعين عاما أن أخلاق هذه البيئات السالفة الذكر توشك أن تكون عدما مطلقا وأنها تحتضن عن طيب خاطر كثيرا من هذه الرذائل والدنايا التي تتصادم مع المبادئ العليا ، وأنها لا تنزعج لأكثر ما يهز الضمائر ويقلق الوجدانات ، وأنه لم يبق لديها من هاتيك المعالم إلا آثار ضئيلة تتمثل في هذه العبارات العائمة الغير المحددة التي يتحدثون بها عما يدعونه بواجب العمال وأصحاب الأعمال ، أو في تلك الجمل اللينة التي يصوغون فيها عدم الرضى عن الكسب الذي انكشفت فيه الوسائل الذميمة بهيئة واضحة ، أو الاستغلال الصارخ الذي لا شبهة في الإفراط فيه ، أو الذي يجاز كثيرا نحو الضغط القاسي . ويلاحظ هذا العالم أيضا أن الأعمال الأكثر استحقاقا للوم والتعنيف هي في تلك البيئات مباحة تماما ، أو قل : إن النجاح يساعد على غفرانها إلى حد أن المرء لا يكاد يعرف فيها الحدود القائمة بين المسموح والمحظور .

على أنه إذا كانت هذه الآثار الضئيلة باقية إلى سنة ١٩٠٢ وهو العهد الذي كتب فيه دوركيم هذا النقد ، فإننا نستطيع اليوم أن نؤكد أن الربح الغير النبيل والاستغلال السيء والمدس والإيقاع ومزاولة أقل عمل ممكن والحصول على أكبر أجر ميسور ، كل ذلك أصبح من

الأمور المألوفة فى هذا العصر بحيث لو شاهدها دوركيم لكان انزعاجه من الأمور المحققة ، ولضاعف التفكير فى التحرى عن الطريق العملى المنتج للتخلص من هذه الأحوال الضارة .

ومن الأسف الشديد أن وباء هذه الرذائل البغيضة قد أخذ ينمو وينتشر وتمتد بلواه من المدن إلى الأرياف التى كانت إلى عهد قريب مهبط الطهر والبساطة ومنبع الشرف والأمانة والإخلاص ، ولكن هذا أمر طبيعى ما دام أن عوامل المدنية الدنيا ورغباتها وحاجاتها قد تسربت إلى تلك الأصقاع فلا بد من أن تجلب إليها نتائجها أيضا .

ومهما يكن من الأمر فينبغى ألا يفوتنا أن نصرح هنا بأن حدة هذه الأزمة الخلقية التى تحدق بالوجدان المهنى تخف وطأتها فى بيئات الطوائف التى استطاعت أن تكون لها وحدات متينة الكيان كما أشرنا إلى ذلك آنفا . ولا جرم أن هذا يقودنا مباشرة إلى السبب الثانى لتلك الأزمة الوجدانية ، وهو ضعف كيان الوحدة المهنية خصوصا إذا عرفنا أن المهن كانت فى الماضى تؤلف أجساما قوية التماسك ووحدات متينة الاتصال ، ولكن الفرق بينها وبين نقابات العصر الحديث هو أن هذه الأخيرة تكاد تقصر مجهودها على المطالبة بالحقوق دون انشغال ذى أهمية بالواجبات ، أما الأولى فقد كانت على عكس ذلك تعنى بتحسين داخلها وتفرغ همها فى إتقان عملها ، وتحاول التفوق بالتبريز فى فنها ، وإحراز قصب السبق فى مهنتها دون أن تلتفت إلى خارجها . ولهذا كانت النتيجتان على أشد ما يمكن أن يكون من التباين ، ففى الأولى نظام وهدوء وإتقان وتقدم وسمو ، وفى الثانية فوضى واضطراب وسطحية وتأخر وانحدار .

وأيا ما كان فليست نقابات اليوم — وقد عرفنا وظيفتها وغايتها — بالوحدات الكافية لضمان التماسك الخلقى . ويبدو أن هذا التفكك المهنى الذى أصاب كثيرا من الوحدات هو مظهر جزئى للتفكك العام الذى أصاب تكوين الحياة الاقتصادية كلها .

أما السبب الثالث لهذه الأزمة فهو اختلاف الأحوال والشروط الاجتماعية للإنتاج العصرى عنها فى العصور القديمة ولا سيما الشرط الخاص بفصل الملكية عن العمل ، ففيما مضى كان إنتاج الصانع ملكه من جهة وكان ثمرة خالصة لمجهوده ومهارته الذاتيين من جهة ثانية ، ولكن عامل المصنع اليوم — بسبب التقسيم الفنى للعمل — لا يعدو كونه منفذا لجزء ضئيل من إنتاج قد يكون مجهولا له هو شخصيا كل الجهل ولا يتطلب منه إلا إعادة آلية لحركة معينة يحفظها ولا يفهمها غالبا ، وقد لا يرى إنتاجه بين يديه إلا لحظة قصيرة لا تمكنه من دراسته أو إدراك دقائقه ، فاذا أضفنا إلى هذه الآلية الجافة شعور العامل بأنه أجنبى عن المصنع لا يملك فيه شيئا ولا يستطيع أن يتصرف فى أدنى جزئية

من آلات إنتاجه أو فى أتفه حصة من ثمار مجهوده ، ثم وازنا بين هذا الشعور وبين إحساس الصانع القديم الذى كان يعمل لحسابه الخاص من ناحية يستخدم مواهبه فى الإجادة والإتقان من ناحية أخرى أدركنا أن معانى الانسانية فى الصانع القديم بارزة ملموسة على حين أنها لم يبق منها فى العامل المصرى إلا معالمها الباهتة .

خاتمـــة

من هـذا كله تتبين الروابط القوية المتينة التى أحكمت أواصرها بين بعض مظاهر المسألة الاجتماعية و بين الخلقية المهنية ، كما يتبين أن الأولى ذات تأثير عظيم فى الثانية ، وأن العلاج الحاسم لخروج الوجدان من هذه الأزمة الخلقية الحالية هو :

(أولا) الأخذ بأنصبة وافرة من الجوانب العليا فى المدنية والحذر بقدر المستطاع من نواحيها الدنيا التى تنمى الغرائز الحيوانية فى الانسان ؛

(ثانيا) محاولة تأليف وحدات مهنية متينة تجعل نصب أعينها الداخل قبل الخارج وتقدم أداء الواجب على المطالبة بالحق ؛

(ثالثا) البدء بدراسة المعضلات الاجتماعية بهيئة دقيقة تنير الطريق أمام المصلحين وتمكنهم من القيام بمهمتهم على الوجه الذى يصلح القديم ولا يهدمه ، ويرد المتطرفين إلى حدود الاعتدال وينتصف لذوى الحقوق دون أن يجاريهم فى العنف .

وقصارى القول يجب على المصلح فى هذا العصر أن يسير طبق ذلك المبدأ الحكيم الذى استفاده المستر تشرشل من الاجتماعيين وصرح به فى خطبته الانتخابية التى ألقاها فى ١٢ يونيه سنة ١٩٤٥ وهو قوله : " إننى لمعارض كل المعارضة فى بناء النظام الأشتراكى بقدر ما أنا توّاق إلى إحداث الإصلاح الاجتماعى " .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية

* * *

" من فعل بغير تدبير ، أو قال بغير تقدير ، لم يعدم حائرا أو لاحيا " .

أبو جعفر المنصور